قراءة جديدة للتّراث النّقديّ

الرّسالة العذراء لإبراهيم بن المدبّر أنموذجا.

أ.سهيلة سلطاني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة ـ قسنطينة ـ

الملخّص:

يشكّل التّراث النّقديّ عند العرب معضلة حضاريّة معرفيّة، لاستشرافه آفاقا شائكة من الدّرس النّقديّ المعاصر، ما يؤكّد أهمّية الموروث وبيان دوره الفعّال في وضح الحجر الأساس لبناء المعرفة، إضافة إلى فضل السّبق والرّيادة في كثير من القضايا التي أسّست الفكر البشريّ عبر مراحل تطوّره؛ هذه المساهمة خير دليل على العقلانيّة التّواصليّة المتجذّرة في الفكر العربيّ القديم الذي تجاوز قوقعة الانطواء تحت مفاهيم بعينها إلى وضع أسس الفكر المعاصر عن طريق استحضار الفاعليّة المعرفيّة في اللّغة، بوصفها طريقا ذهنيّا مؤدّية إلى مقاصد المرسل، ولا شكّ أنّ المدوّنة العربيّة مازالت بحاجة إلى قراءات جديدة من لدن الباحثين؛ ولعلّ الرّسالة العذراء لـ **"إبراهيم بن المدبّر" (ت 279 هـ)** تمثّل جانبا مهمّا من المكون المعرفيّ لهذا الإرث المتشابك، الذي يمتاز بخصائص تداوليّة تسمح له بإحداث نوع من التّفاعل الوظيفيّ في علاقته بالسّياق التّواصليّ.

Abstract:

For the Arabs the critical heritage formed a knowledgeable civilized dilemma ;because, it predicted a complicated horizons from the contemporary critical lesson, which emphasized on the importance of the heritage and the display of its effective role in the foundation of the prominent basis for the construction of knowledge; besides of its leadership in many of the cases that had built the human cognitive through the stages of its progress, this contribution is the best evidence of the rooted communicative rationality in the Ancient Arab Thought, which exceeded the

convergence under certain concepts to the establishment of the pillars of the contemporary thought by means of evoking efficiencies of knowledge in the language. As a mental path leading to the purposes of the sender, no doubt that the Arab Code still needs new readings from the researchers; and perhaps the message of the Virgin "Ibrahim bin Mdabr" (d. 279 e) is an important part of the cognitive component of this legacy of interlocking, which has the characteristics of circulation Allowing him to create a kind of functional interaction in relation to the context of communication.

يقودنا التّفكير البلاغيّ عند العرب إلى إعادة النّظر في الدّراسات التي أقيمت فيه، بحكم أنّ فهم العصر لا يتأتّى إلّا بفهم التّراث الذي يمثّل حلقة الوصل التي ستجيبنا عن كلّ الأسئلة المستجدّة التي تتطلّب فهمًا ودراية بمفهوم الأصالة، بحكم أنّ الباحث في أمور العصر بمنأى عن التّراث وبطريقة موازية لدراسات الآخر ـ قاطعا جذوره، متناسيا أصوله ـ كمن يستثمر الأرض البور، وهكذا صار لزاما علينا توسيع المفاهيم البلاغيّة ضمن منظومة معرفيّة نسقيّة تكشف لنا معاني جديدة تمثّل لبنات إضافيّة للتّراث النّقديّ، ومنه نقصد بمصطلح التّراث «البداية بالأنا في مقابل الآخر، وتطوير الثقافة المحلية وليس استبدالها وزرع أخرى مكانها» [1]، ولمّا كانت البلاغة العربيّة تعالج المقاصد المحكومة بالوعيّ؛ أي كلّ ما يفترض به تحقيق تفاعل بين الجماعة المتخاطبة، غدت مستودع أفكار التّراث العظيمة التي لطالما أماطت اللّثام عن وجوهه المتنوّعة وأشكاله المتعدّدة، بعدّ كلّ نص بوجه أو بآخر بلاغة تربط بين عهدين: عهد جديد وآخر قديم يحتاج إلى قراءات لا متناهية تقام داخله، كشفا عن مكنوناته الفكريّة وخصائصه النّوعيّة ومهمّاته الجماليّة؛ لأنّه ما أحوجنا في هذا العصر إلى أرضيّة صلبة تحمينا من التّهاوي والسّقوط في يد الآخر.

و«عندما ننظر إلى الظاهرة البلاغية، باعتبارها ظاهرة لغوية متجسدة في

[1] _ محمد آيت حمو: أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2012م، ص103.

خطاب، ومتحققة فيه، خاضعة لشروط القول والتلقي، فإننا نكون أمام خطاب تواصلي يمتاز بخصائص بنائية و براجماتية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات الإخبارية، السردية و الحكائية»[1]، التي تتفاعل بفعل اللّغة التي تظلّ بدورها القوّة الجبّارة المعبّرة عن الهويّة بأبعد معانيها، ووسيلة التّعارف والتّمايز الأولى بين الجماعات اللّغويّة؛ لذا لا يمكن عدّ اللّغة سوى تأشيرة دخول عالم النفس البشريّة لتفسيرها وتحليلها معبّرة عن المقاصد المكتنزة داخلها، وإخراجها إلى المجتمع في أحسن صورة؛ إنّها تتقمّص الأدوار؛ فهي خير وسيط اجتماعيّ بين الذّات والموضوع، وحلقة الوصل بين الحاضر والماضي وبين الأنا والآخر، من خصائصها النّمو والتّطوّر بحسب متطلّبات العصر، تُعَنَّف وتُعَنِّف، لتشتغل في نفس الوقت على أكثر من وظيفة، وهذا عائد لقدرتها الهائلة على التّركيب والتّفريع وجمع شتات المعنى المنتشر بتفعيل رموزها في ثنايا الخطاب.

«وليست رموز اللغة رموزا فارغة بل هي مشحونة بسياق تراثي ينحدر من أعماق التجربة اللغوية عبر العصور منذ وضعها إلى آخر ما استقرت عليه من دلالة مع رصد كل التطورات والانزلاقات التي عرفتها هذه الرموز في سياقاتها المتعددة»[2]، مع الأخذ بعين الاعتبار مجموعة العوامل النفسيّة والاجتماعيّة والأيديولوجيّة، والخطط الإبلاغيّة والاستراتيجية الإقناعيّة، التي تسهم في تحديد مسار الخطاب بتنشيط مضمونه الفكريّ والقصد من تأسيسه، أين يُفتح باب التأويل ويتسنّى للمتلقّي

[1]_ مصطفى الغرافي: الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال "منهاج البغاء وسراج الأدباء"، عالم الفكر، العدد 1، المجلد 40، سبتمبر 2011م، ص266 .

[2]_ حسين خمري: سرديات النقد من تحليل الخطاب النقدي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011م، ص95.

التّواصل العقلانيّ مع الخطاب بفكّ شفراته ورموزه، تجلية للغموض، وتوضيحا للمعنى، ثم محاولة إنتاجه من جديد بطريقة موازية للتّراث ومتماشية في الآن نفسه مع متطلبات العصر.

إذًا؛ فالتواصل «هو الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور. إنه يتضمن كل رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان، ويتضمن أيضا تعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والقطارات والتيليغراف والتلفون وكل ما يشمله آخر ما تم في الاكتشاف في المكان والزمان» [1]؛ إنّه تحقيق ذات الفرد مع الآخر (الموضوع)، بنقل وتبادل الرسائل اللّغوية وغير اللّغوية بطريقة قصديّة، وقد تكون هذه الرسالة خاصة بالأفكار والآراء أو بالمشاعر والأحاسيس، وكلّ ما يرافق هذه العملية، مع ضمان وجود حلقة وصل بين البّاث والمتلقي، تغذّيها المرجعيّة المشتركة والرّموز المتّفق عليها بين أطراف التواصل [2].

ويبقى الشّرط الأوّل للتّواصل وجود سنن يحوّل الفعل إلى إنجاز حقيقيّ تتداخل فيه العلاقات وتتشابك لفكّ شفرة العلامات المختلفة ـ اللّسانية وغير

---

[1] _ إبراهيم حسن أبو حسنية: التواصل في القرآن الكريم، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2014م، ص 28.

[2] _ تنحصر جلّ تعاريف التواصل في التفاعل الناتج عن علاقة التبادل بين الأفراد وكل ما تحتويه من مضامين مختلفة، وهذا ما ركّز علية **"جون دبوا"** أثناء تعريفه للتواصل، فهو «التبادل الكلامي بين ذات متكلمة، والتي تنتج ملفوظا موجها إلى متكلم آخر، وهذا المخاطب يلتمس الاستماع أو الجواب المباشر أو غير المباشر حسب طبيعة الملفوظ، ينظر:

_ Jaen Duboi et Autre , dictionnaire de linguistique librairie la Rousse , 1973 . P .96 .

اللّسانية ـ، هكذا بات على المخاطِب خلق سنن جديد يحرّك التّفاعل للاندماج في العلاقات الكلّية، متجاوزا السّنن الموحّد الذي قال به **"جاكبسون"** R. Jakobson إلى الازدواجيّة السّننيّة، ويتّضح هذا الأمر أكثر إذا عرضنا موقف **"بورديو"** Bourdieu الذي يرى أن نظرة **"جاكبسون"** تحمل دورا إيديولوجيا، «إنه يهدف وضع قناع بهذا المظهر المرح بانسجام خيالي على وجود توترات مواجهات وجور حقيقي، إنكار وجود هاته التوترات والتعلل بأوهام الأحادية اللسانية Communisme Linguistique هو في الواقع توسل بواسطة ورقة اللغة لاختلالات اجتماعية»[1].

يرى **"بورديو"** أن ثنائية **دال / مدلول** تختلف من فرد لآخر، بحسب توتراته وتعلّلاته وأحاسيسه وبحسب طريقة تفكيره، وليس هذا بجديد فـ **"عبد القاهر الجرجاني" (ت 471 هـ)** الذي تطرّق إلى ثنائيّة **لفظ/ معنى**؛ أكّد أنّ المعاني تختلف بحسب طريقة انتظامها في النفس كما أنّ الألفاظ تختلف بحسب استعداد كلّ فرد إليها، وهذا ما يؤدّي إلى تفرّد الشّعراء واختلاف مذاهبهم بحسب القدرة على التّخييل المولّد للإبداع الكامن في توظيف اللّغة توظيفا جماليّا يقوم على فنّية الاختيار وقدرة التّأليف، وهكذا يتولّد عن **المعنى** معادل موضوعيّ هو **معنى المعنى**، فالمعنى الأوّل هو المعنى اللّغوي القائم على علاقة الاختيار والاستبدال، أين تظهر قدرة اللّغة الكامنة في شجاعتها على غرار ما اصطلح عليه **"ابن جنيّ" (ت 392 هـ)** بـ **"شجاعة العربيّة"**، أمّا المعنى الثّاني فهو المعنى المجازي الذي يتولّد عن قدرة الاختيار في علاقتها بالسّياق والظّروف المحيطة وموقع كلّ هذا في نفس المتلقّي، ثمّ الطّريقة التي

[1]_ محمد نظيف: الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2010م، ص25.

سيتعامل بها مع النّص أثناء فكّ رموزه، وكيف ينتج نصّا جديدا يلاقح النّص السّابق، مؤكّدا: «وإذ قد عرفت هذه الجملة، فهاهُنا عبارة مختصرةٌ أن تقول: "المعنى" و"معنى المعنى"، تعنِي بالمعنَى المفهومَ من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى، أن تعقل من اللَّفظ معنًى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسّرتُ لك»[1].

من هنا سنحاول أن نتبيّن الدّور الفعّال الذي لعبه العلماء العرب وقدرة اللّغة العربيّة على تحقيق التّفاعل التّواصليّ النّاتج عن العلاقة التّبادليّة بين التّصوّرات الذّهنيّة للمعرفة المشتركة التي تسمح للمعاني المضمرة بالظّهور، حاملة بين طيّاتها قوى إنجازيّة إقناعيّة تطمح في الاحتجاج لموقف أو مبدأ معين، وما تحدثه من تأثير ينمّي قدرة التّواصل.

أوّلا: التّراث العربيّ بين الأصالة والتّبعيّة:

يعدّ الحديث عن هذا الموضوع من الضّرورة بمكان، لتسليطه الضّوء على الامتدادات المعرفيّة المتشعّبة للمدوّنة العربيّة؛ لذا بات لزاما علينا سبر أغوار هذا الإرث الأصيل المتنوّع والمتشابك، بالرّجوع رأسا على عقب للتّراث المرجعيّ نفسه قراءة وتحليلا، لاستنباط القوانين العامّة التي حرّكت عجلته طيلة قرون، هذه القراءة تسمح للباحث بربط العصور المعرفيّة تأصيلا وبناءً، ثمّ الانطلاق من جديد بحسب الظّروف الرّاهنة؛ ما يحيل إلى إعادة قراءته بطريقة جديدة تخرجه من قوقعة الانطواء على مفاهيم بعينها ردحا من الزّمن؛ إذًا نحن أمام أمرين اثنين:

[1]_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود أحمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، ط5، 2004م، ص 263.

الأوّل: البحث عن مكانة عربيّة أصيلة داخل التّراكم المعرفيّ الشّاسع، والتي تسمح للباحث بالوقوف على أصل هذا المنبع، الذي تغذّى بدوره من روافد معرفيّة متعدّدة ومتشعّبة، إلّا أنّ استقلاليته تبقى أمرا محسوما.

الثّاني: إعادة بعث التّراث من جديد بقراءة فاحصة تتماشى والطّروحات الفكريّة المعاصرة، التي من شأنها كشف مواقع السّلطة دون ممارسة أيّ ضغوط، ومن ثمّ إعادة تشكيل معرفة عربيّة جديدة غير منفصلة عن ذاتها؛ بل متواصلة؛ تتمتّع بكامل الخصوصيّة.

إنّ محاولة فهم بلاغة العربيّة تستدعي بالضّرورة فهم العلاقة الجدليّة بين نزول القرآن الكريم بمعجزاته اللّغويّة البيانيّة والدّراسات التي أقيمت حوله، الأمر الذي دفع المشتغلين عليه إلى وضع شروط منهجيّة تستدعيها ضرورة حضاريّة، مؤدّاها أنّ المعرفة لبنات متواصلة، ولمّا كانت المعرفة كذلك وجب علينا امتلاك الآليّة التي تسمح للعلم بالتّواصل؛ لعلّ أبرزها شرط الكتابة بعدِّه الجانب الإجرائيّ لاكتساب زمام صنعة البلاغة؛ ولعلّ أوّل من تفطّن لمثل هذه القضية **"بشر بن المعتمر" (ت** 210 هـ) الذي دعا صراحة المشتغلين على البلاغة أن يحترموا مجموعة من القواعد والشّروط التي تمكّنهم من اكتساب الصّنعة، مركّزا على الملكة اللّغويّة في علاقة اللّفظ بالمعنى، ما دفع أصحابها إلى تهذيب كتاباتهم وتنقيحها، بغية التّمكن من نفس المتلقّي، فنظروا إلى اللّغة نظرة تكامليّة، مهتمّين بدراسة الشّكل في علاقته بالمضمون، وبتحديد سمات الكلام البليغ، كما اهتمّوا بثقافة الكاتب ووعيه لضمان وصول المعاني المكتنزة إلى ذهن السّامع الجيّد على أكمل وجه، والتّأثير فيه، مع اشتراط وجود مقصديّة واضحة تسهم في توطيد عمليّة التّواصل بإحداث المتكلّم فعل وإحداث السّامع ردّة فعل.

ومن هذه المصنّفات الجادّة التي تداخلت فيها البلاغة بالتّداول والتّواصل رسالة **"إبراهيم بن المدبر" (ت 279 هـ)** المعنونة بـ **"الرّسالة العذراء"**، والتي أوردها **"محمد كرد علي"** في **رسائل البلغاء**، كما أوردها كلّ من **"ابن النديم" (ت 378 هـ)** في **الفهرست** و**"ياقوت الحموي" (ت 626 هـ)** في **معجم الأدباء** الجزء الأول، وأورد كل من **"ابن عبد ربه" (ت 328 هـ)** في **العقد الفريد** و**"القلقشندي" (ت 821 هـ)** في **صبح الأعشى** فقرات مطوّلة عنها.

ثمّ نشر **"زكي مبارك"** الرّسالة كاملة، مصحّحة ومشروحة مع مقدّمة مفصّلة بالفرنسيّة عن فنّ الإنشاء ومذاهب الكُتّاب في القرن الثالث **(03)** هجري.

ثانيا: اعتبارات تأليف الرّسالة:

تمثّل **"الرّسالة العذراء"** مرحلة النّضج في كتابة الرّسائل الدّيوانيّة؛ إذ تصوّر لنا الحاجة القصوى لتعلّم الكتابة في ظلّ التّطوّر والازدهار الذي شهدته الدّولة العبّاسيّة آنذاك، كما صوّرت حاجة الدّولة إلى ثلّة من الكتّاب المهرة المتفنّنين في صنعتهم، وقد كانت الغاية من تأليف الرّسالة وضع قواعد وأسس كتابة الرّسائل الجادّة؛ لذا انطلق صاحبها من جهود الكتّاب السّابقين ممثّلا خلاصة أفكارهم، محاولا الخروج بطرح عام يجمع شتات المتفرّق بصياغته في قالب جاهز لكلّ الأزمنة والأمكنة.

ويظهر لنا جليّا أنّ **"إبراهيم بن المدبر"** على دراية تامّة بظروف عصره والعصور التي سبقته، فتنوّعت بذلك مناهل جمع مادّته متأثّرا فيها بـ **"عبد الحميد الكاتب" (ت 132 هـ)**، و**"بشر بن المعتمر" (ت 210 هـ)**، وبـ **"الجاحظ" (ت 255 هـ)** خاصة في **"البيان والتبيين"**، وغيّرهم...، متسلّحا بآليات البلاغة، فكانت الانطلاقة منها مراعيا في ذلك اعتبارات معيّنة:

أ ـ الاعتبار الدّينيّ الأخلاقيّ: باعتبار أنّ التّحلّي بالمبادئ التي جاء بها القرآن الكريم والسّنة الشريفة يمكّن الكتّاب من الخوض في صنوف البلاغة على اختلافها، يقول: «فإن تقاضتك نفسُك علمَها ونازعتك همتك إلى طلبها فاتخذ الطلب دليلا شاهدا والحق إماما...؛ واستوهب الله توفيقا...، و استمنحه رشدا يقبل إليك بوجه مذاهبك، فاقصد في ارتيادك، وتأمل الصواب في قولك وفعلك...، ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها، فترتحل نافرة عن مواطنها من قلبك»[1].

ولقد ركّزت نّظريّة الفعل التّواصليّ في التّداوليات المعرفيّة على الجانب الأخلاقيّ لمفهوم الأمّة، والتي تبحث في مجموع الشّروط التي تجعل من التّواصل أمرا ممكنا داخل المنظومة الاجتماعيّة المتداخلة، كما تجعل من مجموع المعارف نسقا تفاعليّا يسمح بإظهار المقاصد ضمن سياقاتها المفسّرة للظّاهرة ككلّ.

ب ـ الاعتبار المعرفيّ: باعتبار أنّ الانفتاح المعرفيّ يلقّح الفكر ويفتّق الذّهن، ومنه دعا المتعلّم إلى النّظر في «كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم وتوقيعاتهم، وسِيرهم ومكائدهم في حروبهم، بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط ككتب السجلات والأمانات، فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب»[2].

تظهر فكرة النّسقيّة بوضوح في ذهن الكاتب؛ أي فكرة التّكامل المعرفيّ وتداخله لضمان تواصله، وهو ما يعرف باتّحاد المستويات الوظيفيّة النّاتج عن تفاعل التّجربة

[1]_ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، مصحّحة ومشروحة مع مقدمة مفصّلة بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب في القرن الثالث، بقلم الدكتور زكي مبارك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1931م، ص6.

[2]_ المصدر نفسه، ص7.

الإبداعيّة مع محيط العالم، هذه النّسقيّة تؤمن برفع «الحواجز التقليدية التي أقامت الفواصل الصارمة بين مختلف الحقول العلمية وتكريس انفتاح القطاعات المعرفية...؛ ترسيخ رؤية نقدية تفاعلية ومعالجة منطقية تداخلية تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد التقاطعية للميادين العلمية المختلفة المعطيات والمتباينة الخصوصيات وإقامة علاقات تكاملية وترابطات امتدادية تروم الثراء الفكري وتناشد التنوع المعرفي»[1].

ج ـ الاعتبار الأدبيّ: وهو معيار علم البلاغة، ويتعلّق في عمومه بمعرفة مبادئها وأسسها وجمالياتها وكيفية تحصيلها، وأهمّيتها في تأسيس الدّولة النّاجحة المزدهرة، يقول: «فإن أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة، فتصفّح من رسائل المتقدّمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه: في تلقيح ذهنك، واستنجاع بلاغتك...، ومن الأشعار والأخبار والسيَر والأسمار، ما يتسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك»[2].

يتّجه هذا المعيار نحو بناء خطاب أكثر فاعليّة، يستمدّ خصوصيّته من توفّر عناصر جماليّة في المعيار البلاغيّ، المتّجه نحو الكلّيّة و الاتّساقيّة المندرجة ضمن سياق خاصّ، لارتباط معانيه بقصد الكلام في مواقف بعينها، من أجل تحقيق الوظيفة التّواصليّة ضمن سياق معرفيّ شامل.

وبناءً على ما سبق يتّضح أنّ الكاتب في موقف تلقين صنعة الكلام وقدرة اكتساب الملكة اللّغوية، التي تمكّن الفرد من ولوج مختلف الصّناعات، التي تعتمد بالدّرجة الأولى على قدرة الإقناع بتكثيف الحجج وتصعيدها، مؤسّسا مجموعة من

[1]_ محمد العاقد: المعرفة والتواصل عن آليات النسق الاستعاري، دار أبي رقراق، ط1، 2007م، ص12.

[2]_ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، ص7.

القواعد الملمّة بحاجات البليغ الذي يتقلّد مختلف المناصب في الدّولة، وعلاقة كلّ ذلك باستمرارها وتفوّقها على باقي الدّول، وكأنّه أدرك مسبقا حاجة عصره والعصور التي تليه لمثل هذه القواعد التي جاءت في قالب نصحيّ إرشاديّ.

ثالثا ـ أطراف عمليّة التّواصل:

ينطلق الكاتب من البحث عن إمكانيّة اكتساب متعلّم العربيّة "كفايات تواصليّة" للنّهوض بها نحو التّثاقف الاجتماعيّ عبر التّواصل المباشر، والتّواصل غير المباشر، «والملاحظ أن هذه نقطة اختلاف بارزة بين الدرس العربي عموما في كثير من علومه، وبين اللسانيات الحديثة، حيث نشأت هذه الأخيرة في بدايتها متمركزة على بنية اللغة الداخلية»[1]، عازلة السّياقات الخارجيّة، عكس الدّرس البلاغيّ العربيّ الذي اعتدّ بجميع عناصر ومكوّنات الخطاب، وفي ما يأتي توضيح لذلك:

أ ـ المتكلّم:

عدّ **"ابن المدبّر"** المرسل قطب العمليّة التّواصليّة، بوصفه منتج الخطاب ومرسله، وإذا ما عدنا إلى المدوّنات العربيّة وجدناها تزخر بالحديث عن الدّور الذي يلعبه المتكلّم في عمليّة التّواصل الخطابيّ، فقد عرفّوا بأنّه: «فاعل الكلام» [2]، وهذا التّعريف تداوليّ في صميمه لارتباطه بعملية الإنجاز؛ حيث أقرّ **"أوستين" J.R. Austin** بأن كلّ قول عبارة عن عمل ينجز، «ولأسباب لغوية بحتة، شك كثير من اللغويين في إمكانية دراسة الدلالة اللغوية مستقلة عن مستعمليها، ويكفي أن ننظر في

[1] _ خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص 163.

[2] _ أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، علّق عليه ووضع حواشيه: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 2006م، ص 27.

النظام اللغوي على مقولات أنا، وأنت، وهنا والآن لكي نتحقق من أن علم الدلالة في جانب لا بأس به يعرف البراغماتية بأنها علاقة العلامات بمستعمليها» [1].

كذلك وضع **"ابن المدبّر"** مجموعة من الشّروط ركّز فيها على دور المتكلّم وقدرته التّخطابيّة، فانطلق من ثقافة الكاتب وعلى رأسها العلم بالقرآن الكريم والسّنة النبويّة الشّريفة، ثمّ امتلاك المعرفة الواسعة باللّغة العربيّة، فدعا المتلقّي صراحة إلى التّبحر في صنوف العلوم على اختلافها وتنوّع مذاهبها حتى أحكم وضع خطّته، ثمّ انتقل إلى الشّروط التي يجب أن تتوفّر في ذات المتكلّم نفسه ومن أهمّها:

ـ ضرورة تخيّر الألفاظ:

دلالة الألفاظ تابعة لقصد المتكلم وإرادته، فلا يتسنّى له إفهام مراده إلّا إذا أحسن اختيار ألفاظه بعرضها على الميزان الصرفيّ، ومثال ذلك قوله: «وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب فزِنِ اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت ...، وأدِرِ الألفاظ في أماكنها، وأعرِضها على معانيها، وقلّبها على جميع وجوهها، حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نافرة، فمتى صارت كذلك هجّنت الموضع الذي أردت تحسينه. وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه» [2].

يدخل هذا التّعبير ضمن **"الدّائرة التّواصليّة"** وبالضبط **"قواعد التّخاطب"**؛ لأنّ المرسل بعدّه الذّات المحوريّة في إنتاج الخطاب هو المعبّر عن مقاصد معيّنة بغرض تحقيق هدف التّواصل، والرّجل في هذا المقام يسبق **"عبد القاهر الجرجاني"** ـ بخطوة ـ في أنّ الكلام مجموعة من العلائق القويّة النّاتجة عن صحّة التّركيب مع مناسبة

[1] ـ محمد صالح الدين شريف: تقديم عام للاتجاه البراغماتي، ضمن كتاب: أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، (د.ط)، 1986، ص100.

[2] ـ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، ص29، 30.

الألفاظ لمعانيها.

ـ التّواصل مع المتلقّي:

تعدّ هذه القضيّة من أهمّ وأبرز القضايا التي ركّز عليها النّقاد القدامى لوعيهم بقضيّة التّفاعل المجتمعيّ؛ لذا قسّموا المتلقّي إلى طبقات مع مراعاة خصوصيّة كلّ طبقة، فلا يمكن للمتكلّم التّأثير في المتلقّي إلّا إذا امتلك الكفاية اللّغويّة والخطة التواصليّة المحكمة، وعليه دعا الكاتب إلى ضرورة المناسبة بين طبقات السّامعين ودرجات الكلام، وأكّد ضرورة مخاطبة كلّ « على قدر أبهته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه»[1].

هذا الإجراء تداوليّ في صميمه يوضّح قاعدة مهمّة من قواعد التّفاعل الخطابيّ، والتي اختزلها **غرايس H.P. Grice** في مبدإ عامّ من قواعد التّخاطب أطلق عليه **"مراعاة كم الخبر"**، الذي يفيد المخاطِب قدرا من المعاني لا تتعدّى المقام التّواصليّ المطلوب، وهنا يرى أنّ «جمل اللغة الطبيعية قد لا تدل على معانيها القضوية المباشرة والحرفية، بل تخرج على دلالات سياقية إنجازية. لذا، صاغ قانون التعاون بمبادئه الأربعة: مبدأ الكم، ومبدأ الكيف، مبدأ التعبير، ومبدأ المناسبة، ومن ثم، يسمى غرايس هذا النوع من الجمل الإنجازية التي تحمل معاني سياقية ضمنية بالاستلزام الحواري. ويتحقق هذا الاستلزام حينما تخرق هذا القواعد الأربع، مع احترام مبدأ التعاون»[2].

هكذا، جعل **"ابن المدبر"** طبقات الكلام ثمانية أقسام: «فأربعة منها للطبقة

---

[1]_ المصدر نفسه، ص10.

[2]_ جميل حمداوي: محاضرات في لسانيات النص، مكتبة المثقف، ط1، 2015م، ص 24.

العلوية وأربعة دونها، ولكل طبقة منها درجة، ولكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر بأهلها عنها، ويقلب معناها إلى غيرها»[1]، كما دعا إلى تخيّر الألفاظ والتّعابير حسب أقدار المخاطبين دون زيادة ولا نقصان، متّبعا منهجا تربويّا يوازي فيه بين أقدار المعاني، وأقدار السّامعين، وأقدار الحالات؛ لأنّ الغاية من الخطاب هي تحقيق غاية اللّغة التّخاطبيّة وهي الوظيفة التواصليّة، التي يرى **"أندري مارتني" A. Martine** أنّها أهمّ وظائف اللّغة، بعدّها الوظيفة التي تسمح لمستعمليها الدّخول في علاقات تفاعليّة، ضمن استراتيجيّة تواصليّة تُزاوج بين المعرفة بقواعد النّحو والمعرفة بقواعد الاستعمال، وكيف ينعكس المظهر الانفعاليّ المتصدّر عمليّة إعادة التّشكيل أو الإنتاج الخطابيّ داخل منظومة اجتماعيّة؛ لأنّ «موت التفاعل القرائي بين مغزى الخطاب وبين بنيته اللغوية هو من أسباب سكون البلاغة، واتهاماتها بالموت، إن أي وصف للتفاعل بين الجانبين، لابد أن يربط بنية التأثيرات (النص) وبنية رد الفعل (القارئ)»[2].

وبناءً عليه؛ يُبرز الخطاب أثناء تشكّله معارف المخاطِب واستراتيجياته الخطابيّة، وقدرته على التّعبير عن أفكاره وتحريكه أفكار المخاطَب، ضمن مظهر علائقيّ يفسّر طبيعة العلاقة بينهما، وآخر توجيهيّ يوضّح البعد الوظيفيّ المتجسّد في اللّغة، أين يركّز المخاطِب توجيه الفعل نحو المخاطَب لتحقيق عمل معين.

ب- تداوليّة المتلقّي:

عندما يراعي المتكلّم حال ومقام وأقدار السّامعين ومنازلهم، فإنّه يسير وفق

---

[1]_ المرجع نفسه، ص10.

[2]_ محمد السيد أحمد الدسوقي: جماليات التلقي وإعادة إنتاج الدلالة، دراسة في لسانية النص الأدبي، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2007م، ص7.

خطّة إستراتيجيّة ذات بعد وظيفيّ تعمل على انجاز الأفعال الذي يفترض ارتباطه بالمرسل أوّلا ثمّ يفترض على المرسل إليه تحقيقه ثانيا؛ فكلّما كانت العمليّة الإبلاغيّة تسير وفق قاعدة **"مراعاة مقتضى الحال"** بمناسبة المقال المقام كان التّفاعل في أعلى درجاته.

ومنه فبناء الخطاب على مقصديّة واضحة المعالم ينمّ عن **"الكفاية التواصليّة"** التي تعبّر عن قدرة المرسل على توظيف اللّغة بطريقة ضمنيّة تظهر تضامنه مع المرسل إليه أثناء توجيهه الفعل، وعليه مارس **"ابن المدبّر"** نوعا من السّلطة التي توضّح مجموعة القوى الانجازيّة المحدّدة لمسار الخطاب، ومن مظاهر القوّة التّواصليّة ذات المظهر التّوجيهيّ في الرّسالة **قصد التّواصل** الذي يظهر من خلال:

ـ توجيه الخطاب إلى سامع ذهنيّ أو عينيّ:

تزخر المؤلّفات القديمة بمثل هذا الأسلوب؛ إذ يوظّف علماء العربيّة ضمير المخاطب للتأثّير في المتلقّي وشدّ انتباهه بعدّه مستهلكا ومنتجا في الآن نفسه؛ لأنّ الخطاب يتمّ بناؤه بحسب ما يريده السّامع لا المتكلّم، «وقد أشار اللغويون القدماء في التراث العربي إلى تأثير المرسل إليه على المرسل، عند إنتاجه خطابه؛ إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللغوي...، وتجسيده بعلامة لغويّة هي إلصاق كاف الخطاب بأسماء الإشارة، ولم يقفوا عند هذا الأمر، بل أبرزوا دوره، أيضا، في سياق الخطاب، وأثر ذلك في الخطاب تداوليا»[1].

ولعلّ هذه القضيّة متجسّدة بوضوح في **"النّظرية المقاميّة"** التي ركّزت على

[1]_ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص47.

الدّور الفعّال لقصد المتكلّم أثناء قيامه بالعمليّة الإبلاغيّة التّواصليّة، وتبقى الغاية من القصد تحقيق الفائدة والمنفعة من الكلام، فهو و« في كل لحظة من لحظات استعمال اللغة قصد لفائدة معينة طبقا لسنن المواضعة العامة في جهاز تلك اللغة»[1]، وما نلاحظه على تنوّع اللّغة من ترادف وتضاد ومشترك لفظيّ...، لا يعود إليها في حدّ ذاتها؛ بل إلى قصد المتكلّم، وتحديد السياق لها.

وهذه سمة أساسيّة تربط التّداولية بالبلاغة العربيّة؛ إذ «تعدّ هذه الجوانب البلاغية المرتبطة بالخطاب، مؤشرات تداولية مهمة تعنى بها قضايا التداولية أيما عناية، على نحو ما نجد في النظرية الإشارية، والحجاج اللغوي، وأفعال الكلام، لكون تلك المؤشرات المطلوبة في الكلام البليغ تكشف عن قصد المتكلم...، كما تعد مؤشرات موجهة للخطاب نحو سامعه»[2].

ولعلّ الأمثلة الواردة في الرّسالة عن هذه القضيّة متنوّعة لدرجة استغراقها حيّزا لا بأس به، وذلك عائد لاشتغال **"ابن المدبر"** على إستراتيجيّة إقناعيّة تحدّد أهداف وغاية الخطاب المتمثّلة في تحقيق المنفعة التّواصليّة ضمن المنظومة الاجتماعيّة، هذه المنفعة هي قطب الرّحى في النّظرية التّداوليّة التي ركّزت على المقاصد التي من شأنها تفسير المعنى المنتشر، وكذلك وضعها محلّلو الخطاب نصب أعينهم بعدّهم الخطاب ممارسة براغماتيّة تجري في سياق، وهذا ليس ببعيد عن الدّرس النّقدي التّراثيّ الذي صبّ أصحابه جلّ اهتمامهم على دراسة التّراكيب ضمن سياقاتها التّواصليّة،

[1] عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط1، 1981م، ص 145.

[2] _ خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص 194.

وليس ناقدنا بمنأى عن هذه القضيّة؛ إذ استغّل موقع السّلطة التّوجيهيّة التي يتمتّع بها، رابطا إيّاها بالسّياق العام المؤطّر لتأليف الرّسالة.

ـ ضرورة عرض العمل الفنيّ على العلماء:

ركز المؤلّف على علاقة النّص بقارئه وبذوق الجهور المتلقّي؛ لذا نصح بضرورة عرض العمل الفنيّ على العلماء والعارفين وأهل الفنّ لمعرفة درجة التّأثير التي تحدّد قيمة الإبداع، يقول: «فإن مُنيت بحب الكتابة وصناعتها، والبلاغة وتأليفها...، فلا تدعونّك الثقة بنفسك، والعجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة...، ولكن أعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره، فإن أصغوا إليه وأذنوا له وشَخصوا بالأبصار...، فاكشف من تلك الرسالة والخطبة والشعر اسمه وانسبه إلى نفسك »[1]؛ لأنّ استحسان العلماء والنّقاد للنّص هو ثمرة الكاتبة التّفاعليّة التي تعوّل على المتلقّي في فكّ شفراتها وتحديد مقاصدها باستخراج استلزامات تخاطبيّة كانت مفترضة مسبقا في ملفوظ المتكلّم؛ لأنّ «الغاية من تحليل الخطاب هو الوقوف على دلالات النّص الأكثر عمقا، وإعطاء النص القراءة الدلالية الأدق»[2].

ج- تداوليّة الخطاب:

يمثّل الخطاب الإجراء الفعليّ للكلام، أين تتعدّد الدّلالات وتتولّد المعاني التي لا تتحقّق سوى بوجود سياق معيّن يعطي للخطاب قيمته أثناء الاستعمال، والمرتبط في الوقت نفسه ارتباطا وثيقا بمقام التّواصل، الذي يُكوّن الإطار العام لفهم الكلام والقصد منه؛ إذ «ليس القول ذا محتوى فحسب، بل إنه ذو مقصد، فضلا عن هذا فهو

[1]_ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، ص34.

[2]_ حسين خالفي: البلاغة وتحليل الخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الفرابي، لبنان، ط1، 2011م، ص27.

أداة اتصال بين أطراف التبليغ»[1].

هذه القصديّة تمثّل مسالك الخطاب المتجسّدة في المعنى ذو الطّبيعة السّياقيّة التي تضفي عليه قيمته وغايته معا، وفي ما يلي عرض لأهمّ القضايا التي ركّز عليها صاحبنا في صنعة الرّسالة:

ـ مشاكلة اللّفظ للمعنى:

لعلّه لا توجد قضيّة نقديّة أخذت حظّا من العناية مثلما أخذته قضيّة اللّفظ والمعنى، فلا يكاد يخلو مصدر من المصادر القديمة من التّعرض أو الإشارة إليها، وقد أولى الكاتب اهتماما كبيرا بهذه القضيّة حتى شغلت حيّزا من الرّسالة، فمشاكلة اللّفظ للمعنى دليل الصّياغة وجمال التّركيب وجزء لا يتجزّأ من نظريّة **"عمود الشعر"** التي شكّلت قوام المعايير النّقديّة الواجبة الاحتذاء في صناعة القصيدة، بعدّها النموذج المثاليّ للشّاعر المفلق، وعليه وجب اختيار اللّفظ وهندسته بما يُشاكل المعنى، ومنه ينصح الناقد النّاشئة؛ مخاطِبا: «فلا تعتدّ بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا لائقا بمن كاتبته، ومشابها لمن راسلته. فإن إلباسك المعنى، وإن شرف وصلح، لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عاداتهم تهجين للمعنى، وإخلال بقدره، وظلم لحق المكتوب إليه»[2].

أولى الكاتب اهتماما كبيرا بمبدأ التأدّب الأقصى، النّاتج عن قاعدة مراعاة مقتضى الحال في النّظريّة التّعاونيّة؛ لأنّ مجموعة الاستدلالات التي يستنتجها المستمع هي نتيجة افتراض قصديّ لتعاون المتكلِّم أملا في إقناع جمهور مستمعيه.

---

[1] _ جيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، سلسلة الدروس في اللغات والآداب، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، 1992م، ص43.

[2] _ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، ص11، 12.

ـ قضيّة النّظم:

تعدّ قضيّة النّظم من أبرز القضايا التي شغلت عقول العلماء قديما وحديثا، لتشعّبها وتفرّعها في كلّ الاتجاهات، فهي قضيّة لغويّة، بلاغيّة، إعجازيّة، كما أنّها مازالت تمدّنا بمعطيات جديدة تتناسب والدّرس النّقديّ الجديد، وقد أدرك الكاتب أهمّيتها في توضيح قصديّة الخطاب وتوجيهه إلى غايته، فأكّد: «وأدِرِ الألفاظ في مكانها، وأعرضها على معانيها، وقلّبها على جميع وجوهها، حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نافرة، فمتى صارت كذلك هجّنت الموضع الذي أردت تحسينه، وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه»[1].

كذلك تعدّ النظريّة خلاصة الجدل القائم حول قضيّة **"اللّفظ والمعنى"**؛ الذي احتدم فيه النّزاع حتى وقع اتّفاق على القول بالنّظم، الذي تطوّر مفهومه مع ثلّة من علماء العربيّة الذين تبحّروا في مسائله، وتوصّلوا إلى أنّ المسؤول عن عمليّة الفهم هي تلك الرّوابط بين الكلم، ما دفع عجلته إلى التّقدم والتّبلور إلى أن استوى على سوقه مع **"عبد القاهر الجرجاني"**، فالألفاظ المفردة لا دخل لها في تشكيل المعنى الكلّيّ للخطاب، كونها علامة اعتباطيّة لا تدّل على العلامة الحقيقيّة التي تتحدّد بفعل العلائق بينها وبين أخواتها في السّياق، لمعرفة الفوائد فيما بينها، هكذا صوّر لنا **"الجرجاني"** «النظم استنادا إلى الدائرة التأويلية، تظهر في أن كلا من النظم والدائرة التأويلية يشتركان في عنصر نظري ولكنهما يختلفان في تحديده تطورا ووظيفة، ويتمثل ذلك في عملية التواصل اللغوي »[2].

---

[1]_ المصدر نفسه، ص29، 30.

[2]_ محمد عبد الرزاق عبد الغفار: عبد القاهر الجرجاني في النقد العربي الحديث، دراسة في إشكالية التأويل، المؤسسة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص24.

ومنه يؤكّد **"ابن المدبر"** أنّ الكلمة تكون «بشعة حتى إذا وضعت موضعها وقُرنت مع أخواتها حسن حالها»[1]، واضعا اللّبنة الأولى لما أكّده **"الجرجاني"**، من أنّ المزيّة تختصّ بالألفاظ إذا توخّيّ فيها معنى النّظم؛ «لأن المزيّة التي من أجلها نَصِفُ اللَّفْظَ في شأنها هذا بأنّه فصيحٌ... تظهَرُ في الكَلِمِ من بَعْد أن يَدْخُلها النظم»[2]، هذا النّظم البلاغيّ يعمل على توفير المعاني الإضافيّة للقول الملفوظ من خلال ثنائيّة "الحقيقة والمجاز"، التي تستدعي تفعيل القدرات الذّهنيّة التّأويليّة بين المستمع والمتكلّم.

ويرتبط النّظم بقصد التّواصل الذي يبحث عن حركيّة المعنى داخل الخطاب، ومنه فالاستعمال اللّغويّ هو نتاج التّفاعل الحاصل بين اللّغة وسياقاتها المتنوّعة، التي تجعل من النّظم ديناميّة وظيفيّة، تمثّل الرّصيد المعرفيّ الذي يستند إليه المرسل في توليد المعاني وبنائها، ثمّ إيصالها إلى المرسل إليه محمّلة بالمقاصد بحثا عن التّفاعل المعبّر عن الكفاية التّواصليّة لنظريّة النّظم، التي تبحث عن القوّة الإنجازيّة التي تتحدّد بفعل السّياق، ومنه الانتقال من الأداء النحويّ السّليم إلى كفاية تواصليّة بلاغيّة تمثّل الإجراء الكلاميّ المؤسّس للعلاقة التّخاطبيّة، وبالنّظم تتحقّق سلسلة الكلام المشكّلة للحوار، ضمن سياق تفاعليّ يعطي توضيحات حوارية وأخرى معرفّة ناتجة عن الكفاية الموسوعيّة المشتركة بين المنتج والمؤوّل.

ـ قضيّة الكتابة والتّدوين:

تفطّن النّقاد القدامى إلى قضيّة الكتابة والتّدوين التي تعدّ من أبرز القضايا التي

[1]_ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، ص21.

[2]_ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص401.

تمكّن الخطاب ـ بعدّه رسالة مشفّرة ـ من الاستمراريّة عبر تاريخ العصور، عن طريق عمليّة التّلاقح الفكريّ، ويعدّ **"الجاحظ"** أوّل من أشار إلى هذه القضيّة عندما ذكر شغف **"ذو الرّمة" (ت 117 هـ)** بتدوين شعره؛ لأنّه يحبّ أن يذكر فلا ينسى، وكأنّه تفطّن مبكّرا إلى ضرورة تواصل النّصوص وتحاورها تحاورا كتابيّا عبر العصور مع متلقّي عليم يكشف كنه الخطاب، ويسبر أغواره من الدّاخل ليخرجها من جديد إلى العالم، ثم يبعثها بطريقة تفاعليّة بحسب مقتضيات التّواصل.

ولا يمكن أن يتأتّى له ذلك سوى بسبر أغوار الآخر بالسّير في اتجاه مزدوج من **أنا/ أنت ثم أنت/ أنا**، وبطريقة مباشرة من دون وسائط مبتكرة، لجعل الأطراف المتواصلة في قلب عمليّة التّواصل المتجدّدة باستمرار؛ «فنحن لا نتصور قيام عملية تواصل حقيقية بدون حضور أو استحضار الأطراف المشاركة فيها، وهذا يقتضي أنه لن يتسنى لنا تأويل كلام النص إلا من خلال موضعته في سياق تواصلي؛ زمانا ومكانا وكائنات مشتركة»[1].

كذلك أشار كاتبنا إلى فضل الكتابة ومكانتها العظيمة بين صنوف العلم والآداب، أين أورد أقوالا مختلفة في فضلها؛ فبعدما كانت البلاغة مقصورة على المشافهة أصبحت مكتوبة متواصلة، مستشهدا في ذلك بقول البرامكة: «رسائل المرء في كتبه دليل على عقله، وشاهد على غيبه»[2]، ومنه فالعقلانيّة العربيّة تواصليّة تبحث عن تفاعل للخطابات بانتقالها من حقبة معرفيّة إلى أخرى.

«وخلاصة ذلك أن الخطاب يحمل الخصائص التمييزية للمتكلم، فهو ينبئ

---

[1] _ عبد الواسع الحميري: في آفاق الكلام وتكلم النص، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2010م، ص224، 225.

[2] _ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، ص31.

بطبيعة السامع الذي أنشئ من أجله، بل أن الخطاب في ذاته في أغلب الحالات حسب ما يريده السامع لا المتكلم، وتلك هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة»[1].

رابعا: حجاجيّة الأفعال الإنجازيّة:

ذكرنا سابقا أنّ اللّسان الأداة الفعليّة والفعّالة في عمليّة التّواصل؛ إذ إنّه الميكانيزم الذي يدمج مختلف العلاقات الاجتماعيّة وما ينطوي تحتها من سلوكات مثيرة ومحفّزة للاندماج التواصليّ بخلق مجالات تسمح بتفاعل الذّوات السّاعية للاندماج في الكلّيات اللّغويّة، والبلاغة العربيّة ليست بمنأى عن هذا الأمر؛ لأنّ فنّ إنشاء الكلام يستدعي تفجيرا للآليات الإبداعيّة دون الخروج عن ضوابط اللّغة.

ولإفهام الآخرين مقاصد الخطاب وتوجّهاته وجب على المتكلّم استعمال تقنيات مختلفة تعمل على تحديد المعاني المكتنزة؛ لعلّ أبرزها قدرة **"علم المعاني"** على تحيق الإفادة في الكلام بتتبّع ميزاته وخصائصه النّوعية التي تظهر قدرة اللّغة على إدماج الطّاقات الكامنة فيها لتحقيق القيمة المضافة؛ أي قيمة التّعامل من أجل التّفاعل النّاتج عن التّواصل بطريق الحجاج؛ «فالحجاج إذن متوفر في كل لحظة من لحظات استعمال اللغة، وهو مهيمن على اللغة ذاتها إلى جانب هيمنته على الطرف الآخر من الحوار فيصبح حينها مكتسبا بعدا تواصليا»[2].

وإذا ما حاولنا إسقاط **"نظريّة الأفعال الكلاميّة"** على التّراث العربيّ فلن نجد معادلا لها سوى مبحث **"الخبر والإنشاء"**، هذا المبحث يجسّد لنا بطريقة مثلى التّطور الذي مسّ علوم العربيّة في فجر الحضارة الإسلاميّة باستيعابها كلّ المعاني التي من

---

[1]_ عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1986م، ص175، 176.

[2]_ المرجع نفسه، ص145.

شأنها حصد الإفادة، و**"فعل الكلام"** مصطلح تداوليّ أطلقه **"جون أوستن" J.R. Austin** في كتابه **"كيف نفعل الأشياء بالكلمات"** (words how to do things with)، طارحا سؤالا أوجز فيه مقاصد النظريّة : **كيف ننجز فعلا حين نتلفّظ قولا؟** ثم سار على دربه تلميذه **جون سيرل J.L. Searle** الذي طوّر ملامح النّظريّة بإضافة عناصر جديدة من شأنها كشف المعنى ومقاصده، لعلّ من أبرزها الفعل الكلاميّ غير المباشر.

تنظر هذه النّظريّة لأفعال اللّغة على أنّها إنجازيّة تتجاوز الفعل إلى العمل؛ أي الأثر الواقعيّ المترتّب على الفعل؛ لذا صبّت جلّ اهتمامها على الأفعال الإنشائيّة التي تتطلّب فعل ثمّ ردّة فعل، ومنه قسّم الفعل الكلاميّ الكامل acte de discours integrol إلى:

- **فعل القول، أو الفعل اللّفظيّ** acte locutoire**:** النطق بالفكرة في جملة مفيدة ذات بناء لغويّ سليم يحمل معنى دالا.

- **الفعل المتضمّن في القول** acte illocutoire: الفعل الإنجازيّ الحامل للمعنى الإضافيّ المترتّب عن الفعل القوليّ، وهو الغرض من النظريّة؛ ويراد به عمل فعل القول؛ أي القوى الإنجازيّة للفعل.

- **الفعل النّاتج عن القول (التّأثّريّ)** acte perlocutoire: الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازيّ على المتلقّي، وردّة فعل هذا المتلقّي، كالقبول والإجابة أو الرّفض وغيره.

يبدو الاهتمام هنا منصبّا على القوى الإنجازيّة، ومفهوم القوّة يتّجه نحو الإقناع الذي يحتاج بدوره إلى حجج قويّة تحوّل الفعل إلى عمل حقيقيّ يترك أثرا في المتلقّي، «لأن لازم فعل الكلام يكون مفهوما من الخارج ومن قرائن الأحوال، ونتيجة لآثارها فهو إذن بمثابة النتائج المحصّل عليها من متضمنات القول التي هي في الأصل مترتبة

عن تلقي فعل الكلام وليس عن فعل الكلام ذاته بدليل أن ما يفهمه ويتأثر به متلق في سياق قد لا يحدث عند متلق آخر»[1].

لخّصت التّداوليّة مهمّتها الأولى والأخيرة في التّواصل بإعادة الاعتبار للعامل غير اللّسانيّ في منظومة الدّراسات اللّسانيّة؛ أي دراسة اللّغة في الاستعمال مهتمّة بعلاقة العلامات بمستعمليها أثناء العمليّة التّأويليّة التي من شأنها الوقوف على مقصديّة الخطاب التي تبرز بوضوح في الفعل الإنجازيّ؛ لأنّ «أحوال حصول الأفعال المنجزة عن قصد هي ما يمكن أن توصف بكونها أفعالا إنجازية»[2].

هنا تطرح قضيّة غاية في الأهمّية، لمن الحجّة الأقوى للأشخاص وهم يتداولون؟ أو بصيغة أخرى من بيده زمام الفعل أثناء القيام بالعمل المنجز؟

نحن نعلم في هذا المقام أنّ تداول الكلام يحتاج إلى حجج مبنيّة بطريقة منطقيّة بحثا عن النّتيجة التي تمثّل المنطلق والغاية في الوقت نفسه؛ ولعلّ **"الجاحظ"** سبّاق لمثل هذه القضيّة عندما ربط مفهوم البيان بالقائل والسّامع على حدّ سواء، «لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3]، والبيان هنا هو الأثر المترتّب من قول المتكلّم بفعل القوّة الحجاجيّة.

هكذا؛ يختلف الحجاج عما هو سرديّ لتوظيفه آليات الفكر بطريقة التّوجيه

---

[1]_ آمنة بلعلى: الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار، مجلة التراث العربي، العدد 79، ص211.

[2]_ فان دايك: النّص والسّياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م، ص 235.

[3]_ الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، تحقيق وشرح: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ص76.

المنطقيّ مقحما في ذلك مجموعة من الآليات التي تسمح بانتشار المعنى في جميع أنحاء الخطاب الذي يتصاعد حتى يمتلأ بالغاية المرجاة من تأسيسه.

وعليه؛ افتتح **"ابن المدبّر"** رسالته بجمل إخباريّة يوضح فيها منهج الدّراسة والغاية منها، فجاءت الجمل الإخباريّة مثبتة مع إفادة المخاطِب بالحكم وجهل السامع به لخلو ذهنه منه، هكذا رسم للقارئ صورة مسبقة عن نتائج بحثه، مجيبا في الوقت نفسه عن طلب السّائل الذي دفعه إلى تأليف الرّسالة، «وأنا أرسم لك ـ أيدك الله ـ من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك، ويعبر عن جملة سؤالك، وإن طوّلت في الكتاب وعرّضت»[1]، وهذا هو المنطق والصّواب؛ إذ لا يستطيع المتكلّم أن يشرع مباشرة في فعل التّوجيه وحمل المتلقّي على الإذعان؛ لأنّ منطق العقل يرفض ذلك، وهذه الطّريقة البسيكولوجيّة تعمل على سلب ذهن المستمع إلى المتكلّم حتى يقع كلامه موقعا حسنا، فإذا ما أحسّ باستكانة الطّرف المخاطَب شرع في بناء حججه بطريقة سلمية من (أ) إلى (ج)؛ أي من الحجّة الأضعف إلى الحجّة الأقوى ليعلّل ويستدلّ ليستنتج، أو بطريقة شاقوليّة من (ج) إلى (أ) ليذعن ويفحم ويسكت.

ومهما كانت الطّريقة وجب في فعل الشّروع أن يكون ليّنا مرنا حتى يلتفّ المتلقّين على القضيّة المطروحة دون ضغط نفسيّ أو إجهاد فكريّ، فكلّما قوت الحجّة سهل الإقناع، وهذا النّوع من الحجج هو **استدلال بالتّعريف**؛ أي الأخذ من موضوع القول دليلا للإقناع، فالموضوع دائر في فلك صنعة الكتابة، أو الطّريقة المثلى لسير الكتّاب، بِعدِّ الكتابة فنّا وعلما في آن واحد، وعليه يؤكّد: «وصل إلى كتابك الذي استفهمتني فيه بجوامع كلمك جوامع أسباب البلاغة، واستكشفتني عن غوامض

[1] ـ إبراهيم بن المدبر: الرسالة العذراء، ص6.

أدوات الكتابة»[1]، وهذا **استدلال بالتّخصيص** قبل التّعميم، فإجابة صاحب الشّأن أسبق من غيره من المهتمّين بالقضيّة نفسها، إلّا أنّ تعميم الطّلب يبقى أمرا واجبا؛ لأنّ النّهوض بالكتابة هو نهوض بدولة مدّت فروعها الزّكية في جميع بقاع العالم، والدّولة الإسلاميّة آنذاك كانت بحاجة إلى ثلّة من الكتّاب المهرة للنّهوض بفكرها واقتصادها وعلاقاتها الإخوانيّة والسّياسيّة، وخطَتها العسكريّة...، ويمكن توضيح بناء قوّة الحجّة كما يلي*:

النتيجة: البلاغة شرط صناعة الكتابة، و صناعة الكتابة شرط قيام الدّولة.

ح5 والله المستعان

ح4 إن طوّلت في الكتاب وعرّضت.

ح3 وأنا أرسم لك ما يجمع أكثر شرائطك، ويعبّر عن جملة سؤالك.

ح2 واستكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة.

ح1 وصل إلى كتابك الذي استفهمتني فيه...جوامع أسباب البلاغة.

تمثّل الحجج من (**1**) إلى (**5**) قُوى حجاجيّة أنتجها فعل الكلام، ومفهوم القوّة هنا يفضي إلى خروج الكلام من المعاني الصّريحة إلى المعاني الضّمنيّة التي تحدّد الغرض والغاية من تأسيس الخطاب، وبناء الحجج من الأضعف إلى الأقوى خير دليل على ذلك؛ لأنّ المتكلّم لا يملك طريقة مباشرة للوصول إلى المعنى، فبمجرّد

[1]_ المصدر نفسه، ص 5.

*_ نقصد بـ ح: الحجة.

الوقوف على المعنى المباشر نجد أنفسنا مضطرّين إلى تحليل عدد لا بأس به من المعاني غير المباشرة، التي من شأنها كشف المعنى المقصود.

وتقنيّة التّكثيف الحجاجيّ لفعل الكلام طريقة مثلى لإقناع المخاطَب بالتّفاعل والاندماج في الخطاب، الذي يختلف ويتنوّع بحسب استعداد الفرد وتوجّهاته، وبحسب حالته النفسيّة وقدرته العقليّة وربّما حالته الاجتماعيّة، كما أنّ التّدرج في انجاز الفعل العمليّ سيمسّ أكثر من صنف من المتلقّين، والملفت للانتباه أنّ الإخبار في هذه الحجج خرج عن الابتداء إلى العمل، فشرط الكتابة هو اكتساب زمام البلاغة، وشرط قيام الدّولة نهوض الكتابة في شتّى الميادين بعدّ الكُتّاب لسان حال الدّولة، وشرط البلاغة والكتابة مع طلب الثقافة والاجتهاد في ذلك هو النّتيجة الحتميّة من الإقناع.

يحمل الخبر بين طيّاته فعل أمر يقتضي وجوب النهوض بالدّواوين للنّهوض بالكتابة، ومن ثم جاء فعل الأمر صراحة ليخرج الخطاب من مجاله الضّيق إلى مجال أوسع مدى، إنّه المجال التّداوليّ الذي يوسّع دائرة الاستعمال اللّغويّ بإقحام عناصر غير لغويّة تعلّله وتفسّره، ومن أمثلة ذلك: اعلم، انظر، خاطب، فاقصد، تأمّل، فامتثل، تحفّظ، ضع، تخيّر، اجعل، استعمل، ارتصد...، التي توجب التّكرار والدّيمومة التي تتغيّر دلالتها من الإبهام إلى الإفهام المتطلب ردّة فعل تظهر عن طريق العمل الإنجازيّ المصاغ تداوليّا.

و«الأمر في لغة العرب عبارة عن استعمالها، أعني استعمال نحو: لينزل، وانزل،

ونزال، وصفه على سبيل الاستعلاء، وأما أن هذه الصورة والتي هي من قبيلها، هل هي موضوعة لذلك، وهي حقيقة فيه، لتبادر الفهم عند استماع نحو: قم وليقم زيد، إلى جانب الأمر، وتوقف ما سواه من الدعاء، والالتماس والندب، والإباحة والتهديد على اعتبار القرائن، وإطباق أئمة اللغة على إضافتهم نحو: قم، وليقم إلى الأمر بقولهم: صيغة الأمر، ومثال الأمر، ولام الأمر»[1].

لفعل الأمر قدرة على تحويل الدّلالة من صورة تخاطبيّة لأخرى، وهذه القدرة تسمح بملأ المعنى تدريجيّا، حتى يتمكّن من قلب المستمع فيذعن، وذلك لخروجه من الغرض الحقيقيّ إلى أغراض جديدة هي أغراض تداوليّة، وظيفتها بناء الخطاب على مقصديّة واضحة بين المتكلّم والسّامع على حدّ سواء، فالتّحول هنا واضح من طريقة الشّروع في صنعة الكتابة والأمور السّياقيّة المساعدة على ذلك إلى فحوى الصّنعة وطريقة اكتسابها، وصولا إلى إجادة الصّنعة والتّفنّن فيها، ففي كلّ مرّة من تكرار فعل الأمر نلحظ اكتسابه معنى جديدا يزيد من متانة الخطاب وتماسكه بتغيّره من دلالة الفعل إلى دلالة العمل؛ أي الانجاز المتمثّل في احتراف الصّنعة، فكأنّ **"ابن المدبّر"** الذي عنون رسالته بالعذراء يؤكّد أنّه لم يسبقه إلى مثلها أحد؛ لأنّها خلاصة سابقيه في صنعة الكتابة؛ جمع فيها شتات أفكارهم ثمّ أضاف أمورا من منظوره بحسب مستجدّات العصر، فالتّغيّر والتّقدّم أمر حتميّ يفرضه تطوّر العقل البشريّ لكثرة

[1]_ أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق وتقديم: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص 428.

حاجاته ومتطلّباته؛ ولعلّ أبرزها ظهور ما يعرف بالتّمدن، فهذه الحياة الجديدة تقتضي أمورا لا عهد للعقل البشريّ بها، لذا قيل "الحاجة أمّ الاختراع".

طغى فعل الأمر على الأفعال الكلاميّة؛ لأنّ مقتضى الحال يتطلب ذلك، فالكاتب في مقام تلقين صنعة لا يستهان بدورها في تأسيس الدّولة، وعادةً المعلّم يأمر والمتعلّم يشتغل على الفهم والعمل، فحسن الإصغاء من حسن التّعلّم، ولا سبيل للتّواصل من دون فعل التّوجيه والتّعليم، ومن هنا جاء فعل الأمر احتجاجا للرّأي ودحضا للشّبهات الواقعة حوله، ومنه فالحجاج هو المنهج الأمثل للإقناع الذي يستدعي بدوره كفايات تواصليّة، كفاية من جهة المرسل، وكفاية من جهة المتلقّي، تكون الأولى منتجة في حين تشتغل الثّانية على إعادة الإنتاج بواسطة عمليّة التّأويل التي تحوّل الفعل الكلاميّ من مجرّد فعل إلى عمل منجز؛ فعل ذو أثر مترتّب يعمل في المتلقّي الذي سيعيد صياغة الخطاب بحسب ما تقتضيه ضرورة الملفوظ، بتفعيله عمليتيّ الإنتاج والتّأويل، ومنه سيبدع من أفعال إخباريّة وأخرى أمريّة توجيهيّة صنعة جديدة تُلاقح الصّنعة الأولى في أمور وتختلف عنها في أمور جديدة طارئة، تستدعيها ظروف التّطور الحاصل نتيجة التّفاعل المتواصل بين أفراد الجماعة الواحدة.

خاتمة:

هكذا؛ تتّضح قيمة الثّراء المعرفيّ للتّراث النّقديّ المنبثق عن عقلانيّة التّجربة الإنسانيّة وفاعليّة السّياق المعرفيّ، فضلا عن المرجعيّة العقديّة المتمركزة حول معجزة الخطاب القرآنيّ اللّغويّة والبيانيّة؛ هذا ما دعا بناقد مثل **"إبراهيم بن المدبّر"** إلى

التّنقيب في الكيفيّة التي وجب الاشتغال بها، وفق منظومة نسقيّة تعتمد التّداول اللّغويّ أثناء الاستعمال، ثمّ المعرفة بالآليات التّواصليّة المتفاعلة وبعمليّات الإبداع اللّغويّ التي تظّل السّرّ الكامن وراء التّفاعل التّواصليّ بين الذّات والكون، ومنه كان لزاما على من يستنطقه التّسلح بآليات البلاغة، التي أفرد لها علماء العربيّة كتبا ومجلّدات لازالت بحاجة إلى عقد حوار حضاريّ في ضوء النّظريّات المعرفيّة المعاصرة.